MERS
MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN-NAHAR
Date : 15-7-93
Photo No. : 190

المفارقة الكبيرة

من يتتبع مسيرة التسوية السلمية في الشرق الاوسط لا يمكنه الا الشعور بمفارقة كبيرة تكمن في المسافة بين واقع المفاوضات وحسابات ما بعد المفاوضات. فبينما تبدو العملية التفاوضية متعثرة في ذاتها، على رغم تتويج مساعي دنيس روس الاخيرة بشيء من النجاح، يتصرف الجميع كأن السلام آت لا محالة. وهو على الارجح كذلك. فالاطراف المتفاوضة مقتنعون منذ اللحظة الاولى انهم لا يستطيعون الخروج لحظة عن خط التفاوض.

ومعنى هذه المفارقة مزدوج. فهي من جهة تدل على ان المنخرطين في التفاوض، وعلى رأسهم الراعي الاميركي، لم يجدوا بعد حلقة الوصل بين الارضية التي حتمت عملية التسوية والهدف المحدد لهذه المسيرة اميركيا، وهو بناء نظام شرق اوسطي جديد يتصف بتطبيع العلاقات بين اسرائيل وجيرانها، بل بتطبيع اسرائيل في وعي العرب لها. لكن المفارقة تدل، من جهة اخرى، على ان هذا الهدف صار اقتناعا عند الجميع، سواء حبذوا التطبيع او كرهوا احتمال حصوله. وهكذا، صار من الشائع أن يأتي المسؤولون العرب على ذكر حتمية التطبيع كأحد المحددات الاساسية لسياستهم وخطتهم التنموية. وآخر مثال على ذلك تصريحات الرئيس رفيق الحريري الى صحيفة "فايننشل تايمس".

ويؤكد هذا الامر انه صار واجبا على الجميع رصد ملامح مرحلة ما بعد التوقيع، اقله لاستقراء الاخطار التي ستتهدد دولنا ومجتمعاتنا من هذا التحول الرهيب في التاريخ العربي المعاصر. ولا بد من القول في هذا المجال ان الطرح الذي يرى في السلام الآتي مجالا لتثمير خيراتنا وبابا لولوج الازدهار والعصرنة ساذج الى حد بعيد. ولعل خير مؤشر على ذلك انهيار الاوهام التي علّقها البعض على دخول مصر في مرحلة تطبيع مع اسرائيل بعد زيارة الرئيس الراحل انور السادات الى القدس.

لا يشك احد في ان السلام الآتي سيكون محصنا بالضمانات الدولية ضد احتمالات العودة الى الحرب، اقله بالمفهوم الذي عهدناه منذ العام ١٩٤٨. لكن، هناك العديد من الاسباب التي تدفع الى التخوّف من ان يكون هذا السلام وبطريقة اخرى "سلاما ما بعده سلام"، وفق العنوان الذي اعطاه ديفيد فرومكين لكتابه عن تجزئة السلطنة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى. ومعنى الكلام ان المنطقة مرشحة لأن تبقى محكومة بعدم الاستقرار، بعد السلام الرسمي بين العرب واسرائيل، وللاسباب نفسها التي جعلت الصراع يطول كل هذا الوقت.

ابرز هذه الاسباب هو بالتأكيد تصرف اسرائيل التي اعتادت موقع القوة ومنطق الفتح، والتي تجعلها ازمتها الاقتصادية المزمنة متحفزة للهجوم على الاسواق والاقتصادات العربية. ولا بد تاليا ان تصطدم حساباتها مع غريزة الخوف على الثروة المتحكمة بالدول العربية الثرية. فهل يمكن تصور دول الخليج قابلة بالمشاركة الاسرائيلية في ثرواتها، وهي التي ترفض مشاركة الدول العربية الاخرى فيها؟ ومحصلة هذا التناقض المتوقّع ان تنتقل ساحة الحرب الاقتصادية الى الدول المتاخمة لاسرائيل، واولها لبنان.

والاهم من ذلك هو ما يمكن توقعه على المستوى الاستراتيجي. فمن نافل القول ان مسيرة التسوية مبنية على فرضية الابقاء على موقع القوة الاسرائيلي، المحصن باحتكار السلاح النووي وعملية نقل التكنولوجيا الاميركية اليه. اي انه يتوقع من الدول العربية ان توقّع على سلام وظيفته الحد من الطموحات التي لا بد ان تحركها، نظرا لحجمها او لحجم حاجاتها. قد يكون هذا التوقع في محله، فهذه الدول لا تملك، في المطاف الاخير، ما يسمح لها بالهروب من استحقاق الهزائم المتراكمة. الا انه لا يمكن تصور ضمور الطموحات العربية كافة حتى نهاية التاريخ. على العكس، يمكن الافتراض بان احد المسببات الرئيسية التي كانت وراء لجم هذه الطموحات هي حالة اللاحرب واللاسلم المستمرة منذ عقدين من الزمن. بل يمكن المجازفة بالقول ان تحقيق السلام قد يكسر الجليد الذي كبّل ويكبل النظام الاقليمي العربي.

ومما يشجع على هذه المجازفة ان مشهد ما بعد السلام لا يراد منه فقط تهميش العرب حيال اسرائيل، بل ايضا حيال الدول المجاورة غير العربية، وفي مقدمها تركيا وايران، وغدا جمهوريات آسيا الوسطى المسلمة. وفي ذلك تحديدا ما من شأنه اعادة تحريك القواعد الجغراسية الثابتة التي حكمت تاريخ هذه المنطقة منذ القدم.

بالطبع، لا يكفي توصيف الداء او رصد الاخطار المحدقة. ما يلزم هو ابعد من ذلك: تحرك عربي، اقلّه على مستوى النخب السياسية والثقافية والاقتصادية، لاقتراح حلول تخفف من هذه الاخطار. ولكن ذلك موضوع آخر.

سمير قصير